الولادة الأزلية للابن

إن عنوان هذا الفصل يبدو وكأنه معقد؛ لذا دعونا نوضح ما الذي سوف نتحدث عنه هنا. إننا نتحدث عن "الخواص المميزة لكل اقنوم" من أقانيم اللاهوت. فهناك أمور محددة، يمكن أن تقال عن كل اقنوم منهم، ولا يمكن أن تقال عن الاقنومين الآخرين.

إذن "فما هي الخواص المميزة لأقانيم اللاهوت الثلاثة؟" وهو سؤال في إقرار الإيمان. إن الإجابة على هذا السؤال عويصة، فأحد الأمور المميزة للآب، أنه يلد الابن، وللابن أنه مولود من الآب، وللروح القدس، أنه ينبثق منذ الأزل من الآب والابن.

واضح أنه إذا تحدثنا عن الولادة ثم عن الانبثاق، سنتمكن من الحديث بإسهاب، عن الخواص المميزة لكل اقنوم. وسوف نتحدث في هذا الفصل عن موضوعين وهما: "الآب يلد الابن" ، "والابن مولود من الآب". وسوف نتحدث في الفصل التالي، عن انبثاق الروح منذ الأزل، من الآب والابن.

إبن :

إن الكلمة المحورية في هذا الأمر هي كلمة "ابن"، وسوف يساعدنا كثيراً أن ندرك، أن الكتاب المقدس يستخدم هذه الكلمة، بعدة طرق مختلفة. لكنه من الضروري أن نتجنب الاعتقاد، بتلك الفكرة الساذجة، أنه لأن يسوع يدعى "ابن الله" فإن هذا معناه، أن الله كان له طفل.

أحياناً تستخدم كلمة "ابن" بما تعنيه هذه الكلمة. لكنها أحياناً أخرى، تستخدم بغير تحديد، بمعنى "المنحدر من أو من سلالة كذا..."، لذلك فالمنحدرون من نسل إسرائيل، يُعرفون بأنهم "أولاد إسرائيل"، وكما قيل باللغة العبرية في العهد القديم "أبناء إسرائيل". ولكن في حالات كثيرة، لم تكن الكلمة تحمل في طياتها المعنى الحرفي للولادة. إن أهل مدينة صهيون، أطلق عليهم أبناء صهيون، وتلاميذ الأنبياء، أطلق

عليهم "بنو الأنبياء" (1مل20 :35). كما أن الفاسدين وعديمي المبادئ والأخلاقيات، أطلق عليهم "بنو بليعال" (قض19: 22). وعندما يستحق أحد الموت، يطلق عليه "ابن الموت" (1صم20: 31). وإن كانت هذه الأمثلة من العهد القديم، فإننا سنجد استخدامات مماثلة للكلمة في العهد الجديد.

لذا فلا غرابة أن نجد التعبير "أبناء الله"، ولا يتبادر إلى أذهاننا أن الله لابد وأن له نسل. إن الحكام الأرضيين، أطلق عليهم "بنو العلي" (مز82: 6)، وذلك لأن السلطة الممنوحة لهم، هي من قبل الله. وهم يمارسون ذلك السلطان خاضعين لله. إن التعبير "أبناء الله"، يستخدم أيضاً ليصف الملائكة (اي1: 6). وهو نفس التعبير الذي استخدم للرجال والنساء، الذين هم موضوع محبة الله. فالتلاميذ المسيحيون الذين يتمتعون بامتياز التبني، قد تم قبولهم ضمن عائلة الله (مت5: 9 ،45 وغل3: 26). لكن يجب أن نلاحظ أنه عندما يستخدم لقب "أبناء" ليصف المخلوقات، سواء كانت بشرية أو ملائكية، فإنه دائماً يستخدم بصيغة الجمع، أما عندما يقصد به الرب يسوع المسيح – الأقنوم الثاني في الثالوث – فإنه لابد وأن يستخدم بصيغة المفرد. إن الاستثناء الوحيد لذلك، نجده في إنجيل (لو3: 38)، عندما جاء ذلك اللقب "ابن" بصيغة المفرد، قصد به الإشارة إلى آدم. والسبب في ذلك واضح؛ لأن آدم أخذ حياته مباشرة من الله، دون تدخل لأي أب بشري.

ابن الله :

عندما نأخذ في الاعتبار لقب "ابن الله"، الذي يراد به الرب يسوع المسيح (يو19: 7)، يجب أن نتحقق من أن كلمة "ابن" هنا، لا تستخدم بأي من المعاني التي وصفناها حتى الآن. إنه ليس الابن لأبيه، بمعنى أن له بداية، ولا لقب "ابن الله" مجرد لقب أطلق عليه، للتعظيم من شأنه، مثلما استخدم للحكام الأرضيين، وليس ليذكرنا أيضاً، أنه تجسد بطريقة خارقة للطبيعة، وليس بالتوالد العادي، مع أنه يذكرنا بذلك بالفعل (لو1: 35). كما أن هذا اللقب ليس أسلوباً غريباً للتعبير عن أنه كان أقرب لله من أي شخص آخر. ان استخدام هذا اللقب "ابن الله" يختلف عن ذلك كل الاختلاف. إن الأقنوم الأول في الثالوث يُدعى "الآب"، ليبيّن لنا طبيعة علاقته الأبدية بالابن. والأقنوم الثاني في الثالوث يُدعى "الابن"، ليبيّن لنا بدوره، طبيعة علاقته بالأقنوم الأول. إن لقبي "الآب

والابن" هما لقبان عاديان، لكنهما يساعدان عقولنا البسيطة لكي تستوعب شيئاً عن العلاقة الأبدية، التي يتمتع بها هذان الأقنومان معاً.

إن هذين اللقبين يعنيان ضمنا، أن "الابن" هو ابن بسبب "الآب". لكنهما لا يستلزمان أن الآب هو الآب بسبب الابن. إن ما يوحي بنفس هذه الفكرة، التعبير: "الوحيد"، الذي يتكرر في الكتاب المقدس. "الوحيد من الآب" (يو1: 14)، "الابن الوحيد" (يو1: 18، 3: 16) وأيضاً "ابن الله الوحيد" (يو3: 18). إن الابن ترجع ولادته إلى الآب، وليس العكس. ولقد لقب مرتين "بكر"، الذي يتضمن أنه كائن قبل كل الخليقة (كو1: 15، عب1: 6). إن العلاقة بين الآب والابن، هي علاقة متفرّدة، إلا أن الكتاب المقدس، كتب بطريقة تساعد عقولنا البشرية، لتفهم هذه العلاقة، حيث عبّر عنها بمصطلحات بشرية مثل: الولادة والميلاد. وكتب أيضاً عن "الابن"، أنه رسم جوهر الله الآب، وبهاء مجده (عب1 :3)، فمن المستحيل للابن أن يكون كذلك بدون الآب. ولكن الله الآب لم يُذكر عنه أبداً، أنه رسم لجوهر الابن.

إن ما سبق ليس معناه أن الآب خلق الابن، وهذا ما يوضحه قانون الإيمان الأثناسيوسي: "مولود من الآب وحده. مولود غير مخلوق". إن الرب يسوع المسيح، ليس مخلوقاً، فلقد رأينا في الفصل الرابع أنه الله، كما أن الآب هو الله، فكلاهما هو الله. كل منهما هو الله الكامل بنفس الدرجة. كلاهما إله أبدي. كلاهما هو الله بنفس الكيفية. ولا يعني هذا أيضاً أن الله الآب اختار أن يعمل شيئاً؛ أو شيئاً لم يكن قد حدث قبلا، لكنه حدث. إننا نتحدث عن شيء يحدث طبيعيا في اللاهوت، الآن ومنذ الأزل، وسيستمر إلى الأبد. ما لم تكن هذه هي حال العلاقة بينهما، لكان من الممكن أن نقول أن هناك تغييراً في اللاهوت. وهذا هو المستحيل بعينه، بالإضافة إلى أنه يناقض التعليم الواضح في الكتاب أن: "مخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل" (مي5: 2، انظرمت2: 6، يو7: 42).

إن الله الآب لم يصنع الله الابن ليكون إلها؛ فهو إله في ذاته. ولكن بدون وجود الله الآب، لما كان هناك اقنوم في اللاهوت اسمه الابن. إن الابن هو من الآب. إن هناك شيئا يحدث في اللاهوت، يشبه العلاقة بين التفكير والكلام. إن الابن هو التعبير عن

الآب؛ لذا فقد قيل عنه أنه: "الكلمة"، الذي كان عند الآب، والذي هو أيضاً الله منذ البدء (يو1: 1 و2). إن هذا هو الابن.

لم يكن ممكناً أن يكون كذلك، لولا الله الآب. والله الآب لم يجد تعبيرًا آخر عن نفسه، سوى الله الابن. إن هذه هي العلاقة بين الأقنومين، الأول والثاني في الثالوث الإلهي.

وسوف أصيغ هذه الفكرة بكلمات أخرى. وسوف نقتبس مرة أخرى ما قاله لويس بركوف "إن التعريف التالي يختص بولادة الابن: إنها ذلك الفعل الأزلي والضروري، من الأقنوم الأول في الثالوث، والذي به كان هو الأساس لوجود الأقنوم الثاني، المساوي له في داخل الذات الإلهية. وجعل ذلك الأقنوم الثاني متمتعاً بكل جوهر اللاهوت، دون انشطار أو انسلاخ أو تغيير (اللاهوت النظامي صـ94).

الكتاب المقدس يتحدث :

يخبرنا الكتاب المقدس نفسه في الأسفار المتتالية عن هذه الحقيقة السرّية التي نناقشها. إن الرب يسوع المسيح، هو بطبيعته إله. ولكن دعونا نفكر في الألقاب التي وُصف بها، فهو ليس فقط "كلمة الله" (يو1: 1) أو انه فقط "رسم جوهره" (عب1: 3)، بل انه أيضاً "كان في صورة الله" (في2: 2،6كو4: 4). كذلك هو "صورة الله غير المنظور" (كو1: 15). إن نفس الفكرة الرئيسية، تفرض نفسها علينا باستمرار. لم يكن ممكنا للابن أن يكون كذلك، لولا الله الآب. فألوهية الابن، وألوهية الآب، تتسمان بترابط وانسجام جوهري.

ومن المهم الآن أن نؤكد على أن العلاقة بين الآب والابن، لم يكن لها نقطة بداية. انها كانت دائماً، ولا تزال كذلك. ولا يجب أن نعتقد أن يسوع لقب بالابن، منذ ولادته، كإنسان في هذا العالم. ويتضح لنا من (يو1: 14 – 18)، أنه بتجسده أمكن للإنسان، أن يرى الابن الوحيد للآب. لكنه كان هو الابن الوحيد قبل ذلك. لقد كان ابن الله المحبوب، موجوداً عندما خلق الكون (كو1: 14 – 20). فالعلاقة بين الآب والابن، لم تكن وضعا ظهر مؤخراً.

بنفس الأسلوب نجد في (رو1: 3 ، غل4 : 4)، أن الرسول بولس يتحدث عن كون المسيح إبناً لله ،قبل أن يتحدث عن ولادته. لقد كان ابن الله قبل أن يأتي في شبه جسد الخطية (رو8: 3)، وهو أيضاً ابن الله، قبل أن يرسله الله للعالم (يو3: 16 ، 1يو4 : 9).

وتوجد فقرة أخرى شديدة الأهمية، خاصة بهذا الموضوع، مدوّنة في (عب1 : 5 – 8). إن الرب يسوع المسيح كإبن، قد أعلن عنه أنه الله، وانه سيملك على عرش أبدي. انه هو ذلك البكر، الذي جاء إلى العالم. هذه العلاقة بالله الآب لم يكن لها بداية قط؛ فبنوته أزلية. إنها علاقة فريدة، وأبعد ما تكون عن إدراكنا. فليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له. (مت11: 27).

وفي (يو5: 16 – 47) فإننا نجد يسوع يتحدث باستفاضة، عن علاقته الفريدة مع الله الآب. وهذه الأعداد يجب أن تكون أمامنا لبضع دقائق تالية. وإذا ما رجعنا للعدد (18) في اللغة اليونانية، فإن يسوع يتحدث إلى الله داعياً إياه: "أبي". وبكلمات أخرى، فإن الله كان أبا له، بطريقة تختلف عن أبوته لأي شخص آخر. وكانت هذه الكلمات مفاجأة لليهود السامعين، الذين اغتاظوا منه بشدة؛ لأنه بهذه الطريقة يجعل نفسه معادلاً لله (ع17 – 18). ومن الملفت للانتباه، أن إدراك يسوع بولادته الأزلية، لم يقلل من إدراكه أنه مساو لله. ويمضي يسوع ليحدثنا عن أنه برغم أنه عمل نفس الأعمال، التي يعملها الآب، إلا أنه لم يقدر أن يفعل أي أمر بدون الآب (ع19 – 24). فهو يستطيع أن يدين فقط، لأن الآب قد أعطى الدينونة للابن (ع22). ولكن هذا لا يعني أن مكانته كانت أقل من الآب، إطلاقاً. فهو يستحق الكرامة التي لله الآب (ع23)، فلو لم تكن للابن هذه الكرامة، ما كان للآب أيضاً أن يأخذ الكرامة التي يستحقها. لذلك فهو كان مدركاً لبنوّته، ومدركا أن الآب قد أرسله، وفي نفس الوقت كان مدركاً أنه مساوٍ للآب، وفي اتحاد معه، الأمر الذي يفوق إدراكنا.

وفي هذه الفقرة أيضاً نجد يسوع يعلن: "أن له حياة في ذاته كما أن الآب له حياة في ذاته". إنه ليس مثلنا، فهو لم يأخذ حياته من شخص آخر؛ لأن له حياة في ذاته، ومع

ذلك فهو يقول، إن له حياة في ذاته؛ فقط لأن الآب أعطاه هذه الميزة (ع26). ومع أن الابن له هذا الامتياز الإلهي في إقامة الموتى (ع25)، إلا أنه يقول: " أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً" (ع30). إن مصدر القوة التي يمارسها، هو الآب الذي أرسله إلى العالم، والذي يجب أن يخضع هو "الابن" لمشيئته (ع30 ، 36). لقد جاء مستخدما ذلك السلطان الإلهي (ع40). لقد كان الرب يسوع هو محور الكتاب المقدس (ع39، 46)، ومع ذلك فهو لم يأت باسم نفسه، بل باسم الآب (ع43). إن هذه الفقرة الكتابية كلها، تحدثنا عن أن يسوع هو الله بذاته وفي ذاته. لكنه من الواضح أيضاً أن الابن لم يكن هكذا لو لم يكن لأجل الآب.

وفي فقرة أخرى مشابهة، نجد يسوع يتحدث مرة أخرى عن مجيئه باسم الآب (يو10: 22 – 42)، وعن حقيقة أن أولئك الذين جاء لخلاصهم هم للابن؛ فقط لأن الآب هو الذي أعطاه إياهم (ع29). انه في العالم، فقط لأن الآب هو الذي أرسله (ع36). إن هذه هي لغة الخضوع. إنها توضح لنا أن الابن يخدم الآب، لكن في نفس الفقرة، نجد يسوع يشير إلى ألوهيته؛ مما دفع اليهود أن يفكروا في قتله للمرة الثانية (ع31). إنهم اتهموه بأنه يدّعى أنه الله (ع33)، ولم يكونوا مخطئين! فإن هذا بالضبط ما كان يسوع يشير إليه. لقد قال أنه يستطيع أن يعمل الأعمال، التي لا يستطيع أحد أن يعملها سوى الله، فهو يعطي الحياة الأبدية (ع28). وقد ساوى نفسه بالله عندما قال، أنه لا يمكن لأحد أن يخطف من يده، أولئك الذين خلصهم، كما أن أحدًا لا يقدر أن يخطفهم من يد الآب (ع28 – 29). لقد أعلن عن نفسه أنه ابن الله، لكنه أيضًا كان هو والآب واحد (ع36 ، 30). فهو لم يكن يقصد أنه واحد مع الآب، بالمفهوم البشري للعلاقة بين الأب والابن، حيث أن الأب هو مصدر حياة الابن، وسبب وجوده، غير أنه شخص آخر غير الأب. وكذلك الحال مع "ابن الله" بنفس المفهوم الذي نستخدم به كلمة شخص في هذا الكتاب. لكن مثل ذلك الشخص لا يمكنه أن يقول "الآب فيَّ وأنا في الآب" (ع38). إن اقنوم الابن يختلف عن اقنوم الآب. إن الابن خاضع للآب، وقد أرسل إلى العالم بواسطته، لكنه في نفس الوقت، واحد مع الآب، وهو أيضاً الله كما أن الآب هو الله. ليس هذا فقط، بل إن كلا منهما في الآخر. إن هذا هو سر الولادة الأزلية للابن. إنه سر "ابن الله" المولود من الآب قبل كل العالمين، إله من إله، نور من نور، اله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، (قانون الإيمان النيقوي).

مشكلات يجب أخذها في الاعتبار :

بالطبع مثل هذا التعليم، يثير العديد من التساؤلات في أذهاننا. ويجب أن نكون أمناء ونقول، إننا لا نستطيع أن نجيب على كل هذه التساؤلات. إننا نتابع سوياً، ما يقوله لنا الوحي المقدس، لكننا لم نقترب من فهم كيفية وجود ذلك. فكيف يُرجع الابن الفضل للآب، في كل ما هو عليه، وفي نفس الوقت يكون هو نفسه إلهاً، بذاته وفي ذاته؟ كيف يُرجع الابن الفضل للآب، في كل ما هو عليه، وفي نفس الوقت لا يكون أدنى منه؟ إن المنطق البشري، لا يفلح أبدًا في حل هذه القضية. إن كل هذه الصعوبات تجعل غير المؤمنين يسخرون من ذلك. إنهم يعتبرون أن كل هذه الحقائق ضد المنطق البشري، وبالتالي فإنها خرافات وسخافات. إنهم لا يصدقونها بل يرفضونها. وعلى النقيض من ذلك، فإن المؤمن يرى أنها أمور، فوق وأعلى من مستوى العقل البشري؛ حيث أنها تختلف كليًا عن الأمور التي يمكن إدراكها.

ولكن توجد بعض المشكلات التي يمكن أن نناقشها هنا؛ حيث انها تظهر من إعداد كتابية فرديةٌ. فما نجده في (عب1: 5)، وكذلك الكلمات التالية الموجودة في (مز2: 7)، تشير إلى الرب يسوع المسيح: "اني اخبر من جهة قضاء الرب. قال لي أنت ابني أنا اليوم ولدتك". ويبدو هذا الجزء وكأنه يوحي، بأن الرب يسوع يمكن أن يتذكر، متى أصبح ابنا لله. فلو كان الأمر كذلك، لما أمكننا أن نؤمن بولادته الأزلية. ولكن إن كان المسيح يشير إلى شيء أزلي ومستمر، فما الذي كان يمكن أن يقوله خلاف ذلك؟ وهذا بالفعل ما يعلّمه باقي الكتاب المقدس. فيجب أن نتعقل، ونفسّر هذا الشاهد في ضوء الأجزاء الكتابية الأخرى، بدلا من أن نعمل العكس.

وبنفس الطريقة نجد ما جاء في (رو1: 4 ، اع13: 32 – 33)، وكأنه يوحي لنا، أن يسوع عُيِّن كابن الله بواسطة القيامة. لكن لا يمكن أن يكون هذا ما قصده بولس الرسول في (رو1: 4)؛ لأنه يمضي بنا في (رو8: 3) ليقول أنه كان ابن الله، قبل أن يأتي في الجسد. ونحن أيضاً نحتاج هنا أن نتذكر (رو1 : 3)، ففي هذا العدد يتحدث بولس الرسول عن يسوع "كابن" قبل أن يتحدث عن ميلاده. ففي العدد الرابع يقول ببساطة، إن القيامة وضّحت طبيعته الأبدية.

وفي (اع13: 33) فإننا نجد أن الرسول بولس، استخدم كلمة "أقام" للمرة الأولى هنا، ليشير إلى أنه أقامه عند ميلاده، وعندما تستخدم للإشارة إلى القيامة فإنها تتبع دائماً بعبارة "من الأموات"، ونحن نستطيع أن نجدها مستخدمة بهذه الطريقة في (ع34). إن الرسول بولس يعلمنا هنا، أن الأقنوم الذي وُلد، هو نفسه ذلك الذي قيل عنه أنه: "مولود من الله"، فلم يكن خائفاً أن يقترب من عقيدة الولادة الأزلية للابن، في كرازته بالإنجيل.